على هامش النقد :

المحاضرة الثانية

فى

بعض سمـــات الشعر الحديث

لحضرة الأستاذ الفاضل

سيد قطب

بمراقبة الثقافة العامة

تمهيد :

حضرات الأساتذة والإخوان :

أسلفت فى حديثى معكم عن «الاتجاهات الحديثة فى الشعر العربى» تصوير « بعض سمات الشعر الحديث » . وقلت : إن المدرسة الحديثة تتخذ فى بعض الأحيان أساليب وتعبيرات لاتتقيد فيها بكل قيود الأساليب القديمة ، وإن كانت تحافظ دائما على الصحة اللغوية والصحة النحوية . وأنها تعد الشاعر إنسانا ذا طبيعة صادقة أولا ، وخاصة ثانيا ، وممتازة ثالثا . وأنها تفرق بين وظيفة الشاعر ووظيفة الدعاة الاجتماعيين أو الخلقيين أو القوميين ، فلا تطالبه بالاتجاه إلى هذه الوظائف ، بل تطلق له الحرية فى أن يتجه إليها أو يعكف على نفسه كأنه يحيا وحده فى هذا الكون الرحيب ، وكل ماتطلبه منه هو الصدق والخصوصية والامتياز فى الاتجاه الذى تنحو إليه طبيعته . وأن

شعر الطبيعة وشعر الحالات النفسية كانا ثمرة طبية لاتجاهات المدرسة الحديثة وأن الثقافة والاطلاع ضروريان لنقد أعمال هذه المدرسة ، لأنها لم تكتف بطبيعتها الممتازة بل غذتها بالثقافات الإنسانية جميعا .

تلك خلاصة السمات التى استعرضتها معكم فى المحاضرة الأولى . وكنت بسبب من استعراض نماذج من شعر الغزل ، أضربها مثلا لشعر الحالات النفسية ؛ ولكن الزمن لم يتسع إلا لعرض صور من الخفقة الأولى للحب فى قلوب بعض الشعراء المحدثين ، وكذلك لم يتسع لاستعراض السمات الأخرى فى الشعر الحديث .

فالليلة سأحدثكم عن بعض هذه السمات . وسيتناول الحديث سمة الصدق فى بواعث القول وفى صور التعبير عن هذه البواعث ؛ وسمة الاتساع والعمق فى طبيعة المدرسة الحديثة وتعدد الآفاق وسنرى معا نماذج متنوعة من شعر الغزل فى حالات الحب المتنوعة تثبت ذلك الصدق من ناحية ، وتثبت غنى طبائع الشعراء المحدثين ووفرة صور الحياة فيها من ناحية أخرى . وإذا اتسع الوقت فسنتحدث عن شبهة آثارها أحد الزملاء الأفاضل فى نهاية المحاضرة الأولى عن « الأسلوب » عند المدرسة الحديثة ، وإلا فسأطلب إليكم الحضور هنا كرة ثالثة للحديث المسهب عن هذه الشبهة المزعومة .

***

الصدق فى بواعث القول وفى صور التعبير :

ما الذى يبعث الشاعر على القول ؟ وما الذى يسعفه بالتعبير عن هذا الباعث ، تعبيرا يرى فى ألفاظه ورنينه صورة أخرى مما هجس فى ضميره ؟

كانت العرب تدّعى هذا الباعث شيطانا يلهم الخاطر بالإحساس ، ويسعف الشاعر بالتعبير ! . وكانت اليونان تتخيل آلهة للفنون ، توحى لأهل الفن بالشعور ، وتلهمهم طرائق التصوير !

وجاء العصر الحديث بالعلم الحديث . وكان هذا العلم إلى أوائل هذا القرن - وربما إلى هذه اللحظة - لا يطيق الفهم إلا على أساس من المادة ، وعن طريق المعمل والتجربة ، أو الفكرة الجافة المجردة ؛ فزعم أن العقل الباطن وما كمن فيه من أحاسيس ، والغرائز وما تشعه من تصورات ، هي مبعث الشعر والفن جميعا ، وهي المسعفة كذلك بوسائل التعبير من رصيدها المخزون ، ورموزها الغامضة في اللاشعور .

والمدرسة الحديثة ، تحترم العلم الحديث ، ولكنها لا تحبس نفسها في حدوده الضيقة ؛ وتهش للخرافة القديمة ، ولكنها لا تأخذها مأخذ العقيدة . فهي تفهم بواعث الشعر وبواعث الفنون كلها ، رغبة كامنة بنفس الفنان في أن يحس بالحياة والطبيعة في منابعهما الأولى ، وأن يترجم ما يحسه ترجمة جميلة ؛ وأن يجسم ويبرز خواطر غامضة في حسه عن الكون الكبير المنسرب في غيابات الأبد ومجاهل الأزل ، أو واضحة متبلورة في شعوره عن استجابات نفسه في معترك الحياة وفي مجالي الكون والطبيعة ؛ وأن يصور كذلك أشواق النفس الإنسانية وأشواق الحياة كلها إلى المجهول وإلى الآفاق الموموقة التي يحجبها الزمان والمكان والحدود الدنيوية الملموسة .

ويصغر الشاعر أو يكبر بمقدار ما تنسرب نفسه المحدودة في نفس الكون الطليقة ؛ وبمقدار ما يترجم شعوره عن الرغبات الكامنة والأشواق المجهولة في الإنسانية جميعا ؛ وبمقدار ما يفيض من الحياة على كل ما تلمسه عصاه السحرية فيسلكه في نهر الحياة الكبير ، ويحيله قلبا خافقا وروحا مرفرفا ، متصلا بالحياة الخالدة بعد أن كان جزءا منفصلا محدودا بحدود الزمان والمكان .

وقد يحسن في هذا الموضع أن أضرب مثالا لهذا الإجمال :

ترين على الشاعر في بعض الأحيان غاشية من السأم ، وتغمره موجة من الملال ؛ وقد يتسع مدى هذا الإحساس في نفسه فتشيع في ضميره شكوك

غامضة فى الحياة وفى أغراضها ومصائرها ؛ وقد تعظم هذه الشكوك ، وتعمق هذه الغواشى حتى يرى الحياة نفسها تسأم وجودها ، وتشك فى أهدافها .....

تلك خطوات ثلاث للإحساس : الأولى ضيقة محدودة ، والثانية متسعة شاملة ، ولكن الثالثة عميقة موغلة فى ضمائر الحياة . ولهذه المرتبة مثال فى شعر الشباب المحدثين هو ذاك بعنوان « فى الصحراء » :

« فى ليلة من ليالى الخريف المقمرة ، الراكدة الهواء ، المحتبسة الأنفاس ، وفى صحراء جبل المقطم الموحشة ، وبين هذا القفر الصامت الأبيد - كانت تتراءى نخلات ساكنات فى وجوم كئيب من بينها نخلتان : إحداهما طويلة سامقة ، والأخرى قصيرة قميئة .... بين هاتين النخلتين دار حديث وكانت بينهما همسات ومناجاة :

الصغيرة :

مالنا فى ذلك القفر هنا ما برحنا منذ حين شاخصات ؟
كل شىء صامت من حولنا وأرانا نحن أيضا صامتات !
تطلع الشمس علينا وتغيب
ويطل الليل كالشيخ الكئيب
والنجوم الزهر تغدو وتثوب
وهجير وأصيل وطلوع وأفول ثم نبقى فى ذهول
ساهمات !

***

أفلا تدرين يا أختى الكبيرة ما الذى أطلعنا بين اليباب ؟
أيما إثم جنينا أو جريرة سلكتنا فى تجاويف العذاب ؟

قد سئمت البث فى هذا المكان
لبثة المصلوب فى صلب الزمان
أفما آن لتبديل ... أوان؟
حدثينى لم نشق حدثينى كم سنلقى حدثينى كم سنبقى
واقفات؟

الكبيرة

أنا يا أختاه لا أدرى الجواب ودفين السر لم يكشف لنا
منذ ماأطلعت فى هذا الخراب وأنا أسأل : ماشأنى هنا؟
فيجب الصمت حولى بالسكون
وأنا أخبط فى وادى الظنون
لست أدرى حكمة الدهر الضنين
غير أنا حائرات والليالى العابثات تتجنى ساخرات
لاهيات!

***

ربما كنا أسيرات القدر تسخر الأيام منا والليالى
تضرب الأمثال فينا والعبر وإذا نشكو أذاها لاتبالى
ربما كنا مساحير الزمن
قد مسخنا هكذا بين القنن
فى ارتقاب الساحر المحيى الفطن
فإذا كان يعود فك هاتيك القيود فرجعنا للوجود
طافرات!

***

أو ترانا نسل أرباب قدامى قد جفاها وتولى العابدون
جفت الكأس لديها والندامى غادروا ندوتها تنعى القرون

أو ترانا مسخ شيطان رجيم
صاغنا فى ذلك القفر الغشوم
وتولى هاربا خوف الرجوم

فبقينا فى العراء يحتوينا كل راء وسنبقى فى جفاء
شاردات ؟

***

لست أدرى : كل شىء قد يكون فتلقى كل شىء فى سكون
وإذا ماغالنا غول المنون فهنا يغمرنا فيض اليقين

***

ثم ساد الصمت كالطيف الحزين
وتسمعت لأقدام السنين
وهى تخطو خطوة الشيخ الرزين
هامسات فى الرمال منشدات فى جلال كل شىء للزوال
والشتات .

***

ومثال آخر فى بيت واحد من أبيات ابن الرومى عن الأرض فى الربيع هو الذى يقول فيه :

تبرجت بعد حياء وخفر تبرج الأنثى تصدت للذكر

فهذا الشاعر تجاوز حسه بالربيع مظاهره كلها ، ولمس مباشرة قلب الطبيعة الحية ، وموضع الخصوبة الأزلية التى يمسها الربيع فتتبرج الأرض له ، لا تبرج الزينة الظاهرة ، ولكن تبرج الأنوثة للذكورة . وجمع فى هذا البيت الفرد خلاصة مايبثه الربيع فى القوى الحيوية جميعا ، وخلاصة أغراض الحياة

الأولى منه ، فوق ما به من جمال فنى فى الصورة الحية التى يرسمها للأرض ، فيمنحها الروح والحركة والقصد فى تعبير سريع .

ومثال ثالث يمدنا به شاعرنا العجيب المجهول « محمد على » فى أبيات بعنوان : « إنى أحبك أيها الدنيا » فقد أحس بروح الحياة تنسرب فى العشب والماء والشجر والضياء والهواء والليل والنجوم والجمال ، وشعر أن روحه متصلة بروح الحياة فى هذه المجالى فهتف هتفته : « إنى أحبك أيها الدنيا » وإليكم أبياته :

إنى شعرت بروحك انطلقت ... فى العشب والأمواه والشجر
فكأنما عينى تظل على ... نبع يفيض الآن بالصور

***

هذا مثل من الاتصال القوى بين نفس الفنان والنفس الكبرى المتغلغلة فى الكون . فإليكم مثالا آخر من صدق الإحساس بخوالج النفس الإنسانية ممثلة فى عاطفة أساسية كعاطفة الحب ، حيث لمس شكسبير فى قصيدة على لسان ڤينوس إلهة الجمال تندب حبيبها أدونيس وقد صرعه الخنزير الوحشى ففجعت فى حبها وثارت غيرتها من الحب فجعلته لعنة وعذابا على مافيه من لذة ومتاع

فى هذه القصيدة التى نقلها إلى العربية الشاعر الكبير الأستاذ العقاد ، صورة صادقة للحب مجردا عن المحبين الحب كعاطفة إنسانية أساسية خالدة ، تتخطى الزمان والمكان ومايخلعانه عليها من شيات ثانوية ، إلى السمات الدائمة الخالدة التى تبدو فى كل حب يقع فى هذا الوجود . والقصيدة طويلة نجتزىء منها بأبيات :

ألا أيهـذا الحب إنك بعده ... ستصبح داء فى الجوانح مسقما
ستصبح أنى سرت ترعاك غيرة ... بعين تريك الوهم صدقا مجسما
وإنك إما عن مرامك قاصر ... فتأسف . أو مجتازه متهجما

عذابك بالصفو الذى فيك راجح وماؤك ممزوج به الرى والظما
بلى سوف تغدو أيها الحب كاذبا لجوجا ملولا جافيا متبرما
يطير بعطفيك النسيم إذا سرى وترمى بك الأنفاس فى كل مرتمى
وتنفخ فى روع العبى فينبرى فصيحا ويغدو مدره القوم أبكما
وياحب تعفو عن كبائر جمة وتضطغن الذنب اليسير تجرما
وياحب تضرى من يدب على العصا فيضرى . وتنهى الضارى المقتحما
وتبتز أموال الغنى وربما منحت كنوز المال من كان معدما
وقد يحلم الفتيان فى ميعة الصبا ويسفه فيك الشيخ إن بات مغرما
هيوبا ولاشىء يهاب لقاؤه عسوفا إذا ما الخوف قد كان أحزما
وترحم أحيانا وفيك قساوة وأنت بأن تقسو جدير وترحما
وأخدع شىء أنت إن قيل منصف وأصعب شىء أنت إن قيل أسلما
وإن شئت أزجيت الجبان فأقدما ووسوست فى قلب الجرىء فأحجما
ألا أيها الحب الغوى : ألا انطلق على الناس سيلا جارفا أو جهنما
ألا ولتفرق والدا عن وليده فلا أم تحنو إن قسوت ولا ابنما
وكم فتنة ياحب توزى ضرامها وترسلها شعواء فى الأرض والسما
ألا وليكن أشقى الأنام بحبه أحق امرىء فيه بأن يتنعما

تلك هى طبيعة الحب فى ذاتها من وراء الأجيال والآباد ، وتلك سماته الصادقة فى كل حادث حب مجردا من الجزئيات والأشكال التى تتحقق أو تتخلف ، ولاتغير شيئا من السمات الأصيلة . والحديث عن الصدق العميق فى هذه القطعة يستغرق الوقت كله ، على أن من خبر الحب أو لاحظه ملاحظة بصيرة فى سواه لايحتاج إلى شرح أو بيان ، ففى هذه المقطوعة كل الخطوط الأولى التى ترسم صورة الحب البشرى وليس وراءها إلا المتفصلات والألوان.

ويجلس توماس هاردى فى ساعة الخسوف ، فيلحظ ظل الأرض على

وجه القمر دائرة صغيرة ، فإذا بهذا المنظر يثير فى نفسه الساخرة أعمق أحاسيس السخرية الهادئة الواجمة ، وينفذ من هذه الظاهرة الفلكية إلى الاعماق الكونية والإنسانية ، وإذا به يقول :

« ظلك — أيتها الأرض — من القطب إلى المحيط ، يدب الآن على شعاع القمر الضئيل ، فى سواد لاشية فيه ، وسكينة لايخالجها اضطراب ، وإنى لأنظر إليه فأعجب : كيف يستوى هذا الظل المنسوق وذلك الجرم الذى أعرفه لك موارا بالقلق والحيرة ؟ وكيف تتفق هذه الصفحة الراضية كأنها الطلعة الإلهية وأقطار عليك أيتها الأرض تموج الساعة بالأحزان والكروب » ؟

« وأسأل : أهذا الشبح الصغير هو كل مايطرحه الفناء الزاخر من الظلال على ساحة الفضاء ؟ حكمة الله أراد بها عوالم الإنسان متجمعة كلها فى حيز هذا القوس المرسوم . كذلك يكون مقياس الكواكب لما تبديه الأرض ويكشفه عليها الزمان . من أمة تنحر أمة ، ورءوس تغلى بالهواجس وأبطال غالبين ونساء أجمل من طلعة السماء » .

فالشاعر هنا لم يقف عند الظواهر والأشكال التى تؤلفها ظاهرة الخسوف ولكنه نفذ إلى إحساس نادر عميق بالفرق بين صخب الأرض وضجيجها وبين ظلها الساكن على وجه القمر ، وسخر من ضآلة مايتركه عالم الفناء الأرضى من الآثار فى عالم الأفلاك ، التى لاتحس بأرضنا ومافيها إلا بمقدار ماترتسم دائرة ساكنة صغيرة على شعاع القمر الضئيل .

إنى لمستك فى الضياء وفى همس الهواء وبين أفكارى
وبنشوة الروحين حين سرى مابينهن نجاء أسرار

***

وبهدأة الليل المديد إذا هبطت فلم تدرك لها أمدا
إلا صدى للنجم منبعثا قد زاد عمق سكونها مددا

إنى أحبك فى الجمال إذا طافت رؤاه جديدة أبدا
أبدا تحس النفس أن له مددا وراء الكون مطردا

***

لقد التقت نفسى بنفسك فى دنيا الخيال وعالم الذكرى
فأفضت نور الحب ملء دمى ثم انطلقت أمامه صورا

***

فإذا بحبك خالد أبدا متغلغل إشعاعه بدمى
وإذا بصوت هاتف أبدا من خلف أفراحى ومن ألمى
إنى أحبك أيها الدنيا

هذا النسق العالى هو بعض مانعنى بالصدق فى الإحساس ، أى الصدق فى الاتصال بأعماق الحياة والطبيعة ، من وراء الحواجز والقيود ، والتعبير عن أغراضها الأصيلة المنبثة فى الجزئيات والمفردات ، ومجاوزة السطوح والظواهر إلى الأغوار والأعماق ، وتصوير الوشائج الأصيلة بين الإحساس الفردى فى نفس الشاعر والإحساس الكونى فى ضمير الحياة . أو الصدق فى التعبير عن عاطفة نفسه السابقة شاملة من وراء الأفراد والزمان والمكان وفيما سبق مصداق هذا الذى تقول .

على أن هناك صدقا آخر تعتبه المدرسة الحديثة كذلك ، وإن كان مطلوبا فى عالم الأخلاق قبل أن يكون مطلوبا فى عالم الفنون . تطلبه من حيث أنها تعنى بتصحيح معايير النفوس كما تعنى بتصحيح معايير الفنون ، ومن حيث أنها ترى الفن عبادة صادقة ، لا تصدر إلا عن طبيعة صادقة . ذلك هو صدق الباعث على القول ، وصدق التعبير عن هذا الباعث كذلك .

منذ أسابيع حضر إلىّ أحد الزملاء المتخرجين فى دار العلوم يطلب منى الاشتراك بقصيدة فى عدد خاص من جريدة السياسة الأسبوعية بفقيد الوطن

الكريم محمد محمود . فقلت له : إنى أستطيع الاشتراك فى هذا العدد بمقالة ، ولكنى لاأستطيع الاشتراك بقصيدة . ذلك أن علاقتى بالفقيد هى علاقة المتابع لسيرته لا المتصل بحياته ، وهذه العلاقة تثير فى نفسى الملاحظة والدراسة ، ولكنها لاتثير الانفعال والحماسة ، فالمقالة هنا هى التى تصور حقيقة شعورى ، أما القصيدة فتزوير على هـــذا الشعر ، لا أرضاه لنفسى ولا للفقيد الكريم .

هكذا تتنطس المدرسة الحديثة وتتحرج وهى تطوف حول قدس الشعر الرهيب ، وبجانبها جماعة من النظامين لايكفون عن القول فى كل ماهب ودب ، وفيما تنفعل له نفوسهم ومالا تنفعل ، وفى المناسبات اليومية التافهة والأغراض الصغيرة المحدودة . ومن البلية أن بعض من يفعلون ذلك ، يحسبون على الشعراء فى وقت تنقصهم الإنسانية العادية .

ففى غداة وفاة محمد محمود قرأت ثلاث قصائد لثلاثة من الشعراء . . . فأما أحدهم الأستاذ محمود حسن اسماعيل فقد كان له من الصلة بالفقيد ما يجعله خليقا أن يقول ماقال ، بل خيرا مما قال . لولا أنه يخلص لطريقته فى التعبير أكثر من إخلاصه لما يهجس بنفسه من شعور .

وأما الآخران فلا يعنيهما من الرجل إلا أنه مات . فذلك خير ما فيه بالقياس إليهما وأفضل ماقدم لهما من الخدمات ، إذا أتاح لهما الفرصة المناسبة لرثائه ونشر هذا الرثاء فى صحيفة كبرى كالأهرام !

بل أنا أعلم حادثة بالذات عن أحدهما كانت خليقة أن تعدل به عن التفكير فى رثاء هذا الرجل بالذات ، فلقد كان يزور المنصورة وإذا بهذا الشاعر يريد أن يتقدم فيلقى بين يديه قصيدة ، وكان من قبل قد استقبل صدقى باشا كما استقبل النحاس باشا فى نفس المكان ، وبنفس المعانى التى أعدها لمحمد محمود ، فما كان من الرجل إلا أن قال فى لهجته المشمئزة المتعالية : « دا بتاع صدقى

و بتاع كل رئيس وزارة . لا لا » !

وفجع صاحبنا فى قصيدته . حتى إذا مات محمد محمود ولم يعد يملك إسكاته قال قصيدة الرثاء فى غفلة من الأحياء .

هذا هو الذى تحاربه المدرسة الحديثة لأنها تكره للشعر هذا الهوان كما تكره له التزوير والبهتان .

ونحن لا نقف بالصدق عند حد الإحساس ببواعث القول ، فنحن نطلبه كذلك فى صور التعبير نطلب أن يكون التعبير مساويا للإحساس ، وأن تكون الصورة مشابهة للباعث وفى قوته ، بلا كذب ولا مبالغة ولا تمويه .

فالتعبير رموز ظاهرة لمعان وأحاسيس مضمرة ، وقيمتها مستمدة من قيمة ماترمز إليه . وهى فى هذا كالعملة الورقية المضمونة برصيد من الذهب: قيمتها هى فى ذاتها زهيدة ، ولكننا نتعامل بها حسبما ترمز إليه من الرصيد المكنوز وراءها . ذلك الرصيد الذى لا تساوى هى بدونه شيئا . فكل زيادة فيها لا تقابلها زيادة فى رصيدها تعد تضخما فى التعبير عند العرف الفنى . كالتضخم فى النقد عند العرف الاقتصادى ، وهذا التضخم يرخص من قيمة التعبير كما يرخص التضخم من قيمة النقود سواء بسواء .

ومن هنا تخرج المدرسة الحديثة صورا صادقة معينة مقصودة فى شعر الرثاء والمدح والهجاء (وتلك أبواب من الشعر لا تنكرها المدرسة الحديثة لذاتها كما يتوهم المقلدون لها دون فهم لرسالتها) وفى شعر الغزل والطبيعة وشعر الحالات النفسية جميعا . صورا مفصلة على قد الحالة التى بعثتها ، لا كتلك الصور الجاهزة التى لا تجىء على قد أحد فيما يخرجه شعراء المدرسة القديمة فى هذا الزمان .

ويبلغ من الحرص على الصدق عند الشعراء المحدثين ، أن ترى سيماهم فى قصائدهم ، وأن تستعيض بهذه القصائد عنهم ، وأن يكون الديوان هو

« اعترافات » صاحبه التى قد يخفى أسرارها فى حياته فتفضحها أشعاره .

وإليكم من هذا قصيدة بعنوان « حنين » لفايد العمروسى . هى صورة أخرى من فايد يستطيع من لم يره ومن لم يعرفه ، أن يلمح فيها سحنته وأن يرى فيها سريرته فى لحظة من لحظات حياته ، طالعته الحياة فيها بدنيا يهواها ويهفو إليها ، ولكنه يرى بينه وبينها حواجز لا يستطاع تخطيها ، فيلمح هذه الدنيا خيالا فى ضميره ، لا تمسكه يداه ، ولا تبصره عيناه ، هذه الدنيا التى أعرضت عنه فى شبابه وأقبلت فى لحظة من لحظات « كهولته » كما يريد أن يتصور . وفى خلال ذلك يجلو لنا صورة مما يختلج فى ضميره ويعترف لنا اعترافا خطيرا فى البيتين الأخيرين .

أحن إلى الدنيا التى فى خواطرى معطرة الأحلام ريّا المناظر
أحن إليها مثلما حن طائر شجى ، إلى إلف من الطير نافر
أحن إليها وهى تنأى بعيدة على أنها ملموسة فى سرائرى
تطالعنى خلف الغيوب فتنجلى لحسى ولكن لا تراها نواظرى
أطلت بقلبى من خلال غيومه فأصغى وحياها تحية شاعر

***

أحن إلى الدنيا التى طال فقدها بماض أليم من حياتى عاثر
فيالك من ماض قطعت ظلامه أضمد مابى من جروح غوائر
فقدت على ضوء الشباب مناصرى
وأبصرت فى ظل الكهولة ناصرى !
فهاتوا لى الدنيا فقد ضاع عمرها وعمرى . وماذا بعد عمر مغادر ؟
نسجت كيان العيش من ذوب مهجتى
ورمت هدوء الصبر رغم معاذرى
على أننى ما كنت أحتمل الأسى عفيفا ولكن غارقا فى جرائرى
جرائر من يعدو من النار يكتوى حشاه ، فيندبه بنشوة فاجر !

وشاعر آخر سمعتم اسمه كثيرا منذ ثماني سنوات ، ثم توارى فترة من العمر هو « على عبد العظيم » . وقد عثرت أخيرا على بعض مخبآته ومن بينها صورة صادرة عن نفسه فى لحظة من لحظاتها سماها « نشوة » تكاد تصور لى هـــذه اللحظة صورة ملموسة فإليكم أبياتا منها :

توقد إحساسي ورقت خواطرى ورفت كأنفاس النسيم مشاعرى
وغرد قلبي فى الضلوع كأنما ترنم فى أحنائه ألف شاعر
وشف أمامى الكون حتى تفتحت لعينى منه مبهمات السرائر
فأبصرت فيه عالما غير عالمى فسيحا كأحلامى طليقا كخاطرى
تقابل فيه الشرق بالغرب والتقى بساحته ماض وآت بحاضر
فنى كل واد منه رنة ساجع وفى كل ناد منه صرحة زامر
وفى كل ضوء نفحة من سلافة وفى كل زهر نبضة من مزاهر
تراقصت الآمال فى جنباته وهامت على لج من الضوء باهر
نسيت بها نفسى فأصبحت هائما أحلق فى روض من الفن عاطر
وأرشف أكواب النسيم إذا سرى وألثم أضواء النجوم الزواهر
وأسمع أنغام الحياة فأنتشى وأحلم فيها بالمنى والبشائر
وأصغى إلى الأدواح فى سرحاتها وأفقه فى الأكام همس الأزاهر
كأنى فوق الكون كون تأنقت يد الله فى ترقيشه للنواظر

والآن نتبع « عبد العزيز عتيق » فى حالات نفسية متتابعة ، فنراه يرسم لنا نفسه فى كل حالة ، ويرتفع نبضه كلما ارتفعت حرارة موقفة ، ونرى عبد العزيز الوديع الشفوف حين يرضى وحين يعتب ، وحين يخشى الفجيعة وحين يئس وينسحب من الميدان :

فنى قصيدة سماها « وحى لقاء » يقول :

يامعين الإلهام ياجذل الرو ح وياهدأة الفؤاد الخفوق

أنا فى معبد الوجود أصلى لك فى نشوة الحب المشوق
ذائبا كالحنين فى الشفة الظمأى وكالحكم فى الخيال المفيق
أبدا أنت شاغلى وجليسى ونجيى وصاحبى فى الطريق
ومعى أنت فى الهجوع وفى الصحو وفى زحمة الورى والسوق
فى المروج الخضراء رف نداها فى النخيل المتوج المنشوق
فى دياجى الحياة فى غيمة النفس وفى هيجة الأسى المخفوق
كلما سرت تخطرين أمامى فى رداء من الخيال الطليق
فى مراد الخيال فى سبحة الرو ح وفى كل هين أو دقيق

وفى قصيدة سماها « عاصفة » يقول :

يابشير النور يافجر حياتى ياربيعا خالدا فى دنياتى
لم أوغلت — على مابيننا — فى محيط الصمت بين الظلمات؟
لم أرسلت يدى فارغة من عطاياك؟ أما أجدت صلاتى؟
لم يا أنس ليالى ، ويا سلوة الأيام تمحو كلماتى ؟

***

كنت لى ظلا على الارض وريفا كنت لى معنى سماويا لطيفا
كنت لى سحراً يغشى هيكلى وربيعا شاعريا لاخريفا !
كنتُ مرهوبا بما ألبستنى من معانيك ووضاء شفيفا
ثم مات الظل والسحر معا بين كفيك فأمسيتُ مخيفا

***

جدث يمشى وقد ضم على أمل عاثت به أيدى البلى
وغلاف ظاهرى لفتى كان بالأمس طموحا للعلا
وبقايا من خيال عابر سكن الدنيا فضاقت منزلا
أتراه الآن ؟ لن تبصره حينما تلقاه إلا هيكلا !

وفى قصيدة بعنوان « بقية لم تسمعيها » يقول :

مالى يطيف بى الظلام أنا الذى بالأمس أبصرت الضياء مطوقى ؟
مالى أحلق فى مداه وأنتهى بجراح مطعون الفؤاد ممزق ؟
مالى على الأمواج أسلم قدرتى وإلى ضفاف الوهم أدفع زورقى ؟
والام تجنح للذبول خواطرى وإلى الجفاف يصير فيض تدفقى ؟
لله آمال زحمت بهـا الورى واليوم أسلمها للحد ضيق !

***

ياباعث الأشواك فى روض المنى ومفرق الأحـلام أى تفرق
زعموك تعبث بالقلوب كريمة لكننى مازلت غير مصدق !
مازلت أطمع أن ترد كآبتى وتعيد إشراقى وروعة منطق
مازلت أطمع أن أراك بجانبى كالأمس تمنحنى الرضاء فنلتقى
أتعود للوكر القديم فيكتسى إما درجت به عذوبة رونق ؟
أتعود ؟ قل : إنى أعود ، فربما تشفى بعودك كل معنى مقلق !

حتى إذا استيأس وهم بمفارقة هيكله ، لم يرحل حتى يلقى نظرة أخيرة فى قصيدة سماها الخروج . جاء فيها :

رويدك ما هذه الحشرجا ت ؟ وما هذه الصور الفاجعة ؟
أهذى ليـالى ؛ ماشأنها ؟ وأين سياحاتها الرائعة ؟
وهذى ؟ أأفراحنا فى اللقا ؟ فكيف تطالعنى جازعة ؟
وما للطموح وما للحنين وما للذى هكذا قابعة ؟
فوَىْ للفناء عدو الحياة ومطفىء أنجمها اللامعة !
يابقايا الأحـلام والآمال
يا أناشـيد عزلتى وابتهالى
لاتعدى على وزر ارتحـالى
شهد الله لم يكن باختيارى !

وهكذا حين يصدق الشاعر فى تعبيره ، يمنحنا صورة مسطورة من شعوره ، والصدق بهذا المعنى الأخير هو أول معالم الطريق بين الشاعر والمشعوذ ، وهو الحد الأول الذى لا يباح تخطيه إلى عالم الشعر إلا لمن يثبت توافره فى نفسه ، وكمونه فى حسه ، ثم يسير الشعراء بعد ذلك فى هذا العالم الفسيح : كل على هواه حر طليق .

***

أنماط الغزل فى شعر المدرسة الحديثة :

الإحساس الساذج الفطرى بالحب ، قريب فى منبته من إحساس الجوع والظمأ ، ومطلب قريب لا يعلو كثيرا على مطالب الجسد ، والمتعة فيه غذاء من أغذية الدم واللحم ؛ والحرمان نوع من الطوى والخمص ، والآلام لون من وخز الجلد ولذع النار ولفحة السموم . والتعبير عن ذلك كله شبيه بالضحكة والصرخة والآهة والأنين ، من أنواع التعبير الفطرى عن اللذة والألم .

وليس هذا هو الحب الذى يحسب فى عالم الفنون ، فالفن نضج فى الحياة وفى الشعور ، وسمو فى التصوير وفى التعبير ، ولن يكون الشاعر - فى الغزل - فنانا ، إلا أن يكون له فى حبه منحى خاص ، وفلسفة شاملة تجعل من هذا الحب مجتمعا للأحاسيس الفريدة بأعماق الحياة وأصولها ، وتتصل بوشائج الطبيعة الكبرى وغاياتها البعيدة .

فالحب ليس إحساسا فى نفس فرد ولكنه فورة وقوة فى نفس كون ، ودفعة ومضطرب فى ضمير دنيا ، وحياة وحركة فى قلب وجود . وليس هو مصادفة عابرة ، ولا فلتة غير مقصودة ؛ ولكنه نظام وقصد تهيئهما الحياة لبلوغ مآرب وغايات ، ولتحقيق آمال وخيالات ، وللوثوب بالنوع فى طريق الرقى والكمال . درجات درجات ،

وشعر المدرسة الحديثة فى الغزل يصور لنا سمة العمق والاتساع وتعدد الآفاق ويخلف لنا متحفا حيا من الصور والحالات النفسية ، تتميز فيها كل صورة عن كل صورة وكل حالة عن كل حالة ؛ فالشاعر الحديث إنما يعنى بالصدق فى التعبير عما يحس ، قبل أن يعنى باحتذاء القوالب المألوفة فى الغزل القديم أو الجديد . ومن هنا نطلع على صورة فنية لكل امرأة يحبها تختلف عن صورة أية امرأة أخرى ، ونرى له صورة جديدة فى كل حالة من حالات نفسه وحالات نفسها ؛ نلمح شخوصا للحظات والأيام ، تتنفس وتحيا ، ونسمع نغمات وأصداء متعددة الألوان تبعثها نفوس متعددة الأوتار .

هى دنيا عجيبة نعيش فيها فنلتقى بشتى الوجوه وشتى الشخصيات ، ونجد فيها نفوسا هادئة وثائرة ، راضية وساخطة ، بانية وهادمة ، محلقة فى الرجاء وجاثية فى القنوط . ونجدها روحانية ترفرف بأجنحة الى السماء تارة ، وبوهيمية توغل فى الواقع تارة ، وكثيرا ما تجمع بين الأرض والسماء فى نظام .

ولكن الميزة الأولى لهذه النفوس : أنها تبدو صادقة فى كل حالة ، طبيعية فى كل وجه ، أصيلة فى كل سحنة ؛ وذلك دليل تفتحها لألوان الأحاسيس ، وكثرة الأوتار المرنة بهافى العاطفة الواحدة ، والعواطف المتعددة ، ومطاوعتها لما تتأثر به ، لا لما تحفظه وتحتذيه .

وقد كان النقد العربى — إلى أمد قريب — قد وضع للعواطف مراسم وقيودا ، ولفنون الشعر قوالب وأنماطا . فمن رثى فعليه كذا وكذا ، ومن مدح فليكن كيت وكيت ، ومن تغزل فليقل كما قال فلان ... إلى آخر هذه القيود .

ترى هذا فى كتاب «الصناعتين» مثلا ، وتراه فى الكتب المدرسية والمذكرات وتلمح أثره فى كتابات من يتصدون للنقد وكل أدواتهم مادرسوه فى الكتب القديمة» .

أما المدرسة الحديثة فقد تخلصت من هذه القيود كلها ، وانطلقت لسجيتها

وفطرتها . وهذه هى رسالتها : الحرية المطلقة فى الاتجاه الفني ؛ والشخصية المتميزة فى مواجهة الحياة .

والآن إلى بعض النماذج نرى فيها مصداقا لبعض سمات الغزل عند المدرسة الحديثة على سبيل المثال ، لا على سبيل الاستقراء .

الحب رفعة للنفس وامتداد فى العمر بهذه الرفعة ، ولحظاته تكشف للنفس آفاقا خالدة كالسموات الوسيعة تبدو من خلال الحلقات الصغيرة . والآباد البعيدة تتجلى من كوى محدودة وربما امتلأت كأس الحياة بأعذب الشراب من قطيرات زمان يتيحها الحب الوهاب . كما يقول العقاد :

لحظة ترفع عمرى حقبا متصلات
رب عمر طال بالر فعة لا بالسنوات
لحظة لا بل خلود لاح بين اللحظات
كالسموات تراها من شباك الحلقات
رب آباد تجلت من كوى مختلفات
وقطيرات زمان ملأت كأس حياة

والحب يجعل للحياة طعما جديدا ويمنحها معنى جديدا ، ويضاعف الإحساس بالجمال فى مجالى الكون والطبيعة وفى الأحاسيس والمعانى ، كما يقول فى قطعة أخرى بعنوان « معنى جديد » :

قد شهدت الزمان فى كل وجه وبلوت الحياة فى كل معنى
وختمت الدنيا فما من قديم كان إلا يعاد وصفا ولونا
فإذا الحياة معنى جديد لم نجده من قبل أو لم يجدنا
ذاك معناك أنت حين وهبت القلب نورا من طلعة الشمس أسنى
ومنحت الحب الإلهى حبا وكسوت الحسن السماوى حسنا

والحب يجدد الأحاسيس ، ويذكى الحياة ويصنع المعجزات كما يقول أحد

الشبان من أبناء دار العلوم :

أفى كل لقيا شعور جديد وفى كل قرب ظماء يزيد
وفى كل يوم أرى عالما من الحب ينسبنا للخلود
وألقاك والكون قفر جديب فتنبض فيه المنى والورود
ويخفق بالحب قلب الحياة وتشدو هواتفها بالنشيد
كأن الحياة وآمالها إذا مالقيتك خلق جديد
هو الحب لا القدر المستعز يقسم فى الكون شتى الجدود
ويمنع فالكون شاك شقى ويمنح فالكون راض سعيد
وينبض فالكون فى نشوة ويخمد فالكون جاث بليد

***

لقيتك خفاقة كالرجاء فذكرتنى أننى بعد حى
وجاش بنفسى شعور الحياة وفتحتا فى رجفة مقلتى
أقلب عينى بهـذا الوجود وترتاد روحى منه الخفى
فياللجمال . ويااللغناء ويااللخواطر تهفو إلى
ويالى من ظامىء لاهف ويالى من عاشق عبقرى
يحيل الحياة إلى فتنة وأصداءها لنشيد شجى
ويطرب بالشعر قلب الحياة وينفحها بالرضا القدسى
وما أنت إلا رسول الحياة وحبك معجزة من نبى

ليس فى هذا الغزل خدوه ولا ورود ولا قدود ، وليس فيه كذلك آهات ولا دموع ، ولكنه إحساس لدنى بالحب الذى يرفع الحياة ويجملها ويجددها ويجعلها شيئا ذا قيمة ، ويحيل هذه الفانية خلودا أو كالخلود .

وقد يذكر الغزل الحديث الخدود والقدود ، ولكنه يرسمها بريشة فنان ،

لابحس حيوان . كما يقول شاعر شاب من أبناء دار العلوم فى قصيدة سماها « فكرة جسم » .

إبسمى . أنت بسمة فى فم الكون والزمان
أشرقى . أنت يقظة تعمر القلب والجنان
أخطرى . أنت خطرة لم يصرح بها اللسان
ذلك الجسم فكرة تحتذى بعد فى الجنان
صاغه الكون محسنا وانثنى جم الافتتان

***

ناهد مفصح مبين عن معانيه فى حياء
راحة النفس والعيون والأمانى والرجاء
جل مافيه من فتون عن هوى الميل والظماء
فيه من خبرة القرون تجارب الأرض والسماء
رق واتساب وانثنى رقة اللحن فى الكمان

«٥»

هـذه العين بسمة حلوة من فم الأمل
هى صحو وسكرة فى رؤى شارب ثمـل
هى نجوى وفكرة وتسابيح أو غزل
هى تقوى وفتنة حفها الزهو والخجل
يالعينيك من سنى فاض بالبشر والحنان

«٦»

ذلك الثغر يافتاه قبلة من فم غزل
رشفة العين من لماه تسكر الحب بالغزل
لثمـة منه بالشفاه تسكب البشر والجذل

يافـــا تفصح الحياه فيه عن فكرة الأمل
ابتسم تشرق المنى فى ابتساماتك الحسان

***

رقية الأرض للسماء أنت ياهـــذه الفتاه !
فرحة العين للضياء راحـــة القلب للصلاة
نشوة الروح للغناء لذة اللثم للشفاه
لهفة الشوق للقـــاء وثبة الكون للحياه
كيف قد جئت كوننا ؟ أنت للخلد والجنان ،

على أنه قد يهبط إلى الأرض ويوغل فى الواقع ثم يظل مع هذا مرتفعا بنوع إحساسه الأرضى الممتاز ونظرية الواقعية الخاصة كما صنع العوضى الوكيل فى قطعة سماها « فتاة منتصف الليل » كلها لهفة جسمية وحنين غريزى

تبيتين فى حضن من يافتاه ومن منك ينشق عرف الحياه؟
ومن ذا الذى أنت فى ملكه وتحويك فى جنح ليل يداه؟
وفى ملكه ومض تلك العيون وفى ملكه رف تلك الشفاه
وفى وسعه لثم هذا الجبين إذا ماتألفه فاشتهاه
لأحسبه فى غنى لاينال وملك الجمال ثراء وجاه

«»

جلست إلى جانبى لحظة بعثت بهـا ثورة فى دمى
نعم . ثورة الجنس مكبوتة تزمجر زمجرة الضيغم
أكاد أمد إليها يدى وأوشك ألثمها فى الفم
وأوشك أرفع عنها النقاب ولكنها همة المحجم
عرفنا السنى مانحا منعما فما لجمـــالك لم ينعم ؟

ثم أعرض عليكم حالة فريدة ، ولهذه الحالة قصة : فى الطريق كان الشاعر

« أحمد مخيمر » يلتقى صباح كل يوم بفتاة يخفق لها قلبه على غير معرفة، ويصوغ من الخيال قصة حب طويلة ؛ وفى يوم من الأيام لم يلقها كعادته، ولكنه تخيل خطواتها فى هذا الطريق، حية شاخصة خطوة خطوة، ورأى المارة يدوسون فوق هذه الخطوات الحية، هذه الخطوات هى رجاء الخالدين فكيف تعلوها أقدام أهل الفناء، بلا تحرج ولا انتباه ! إن الطريق الحى ليحتضر تحت هذه الأقدام :

فى كل صبح نلتقى هاهنا وتلتقى أعيننا فى الطريق
وفى الفؤاد نبتة للهوى تسقى بهذا الضوء عند الشروق

«»

سوف أراها غدا دوحة لها بأرض النفس ظل ظليل
وتلتظى الدنيا فيأوى لها كل غريب عابر فى السبيل

«»

فى كل يوم أنا أصحو على شوق جديد ورجاء جديد
يبث فى النفس حياة كما يبثها الصبح بهذا الوجود

«»

فليت شعرى لم أحببت أن
أذهب وحدى اليوم تحت الظلال ؟
أسأل عنك الدوح فى لهفة والدوح مثلى ماينى عن سؤال

«»

أوزع العين هنا أو هنا وملء نفسى أمل فى اللقاء
وملء نفسى صورة حية لوجهك الهادىء مثل السماء

***

تراك أسرعت فلم يتفق لقاؤنا أم ذا سبيل طويل ؟

ياألف لهف. أوشكت أن ترى بداية الموت لهذا السبيل !

***

خطاك بالأمس هنا حية ألمحها محفوفة بالرغاب
يرف فيها زهر لم تزل تفوح منه نسمات عذاب

***

يرف فيها زهر لا يرى أوراقه مرتعشات سواى
أنا الذى أسمع للشمس إذ يشرق حولى ضوءها ألف ناى

***

تلك الخطا للخالدين الرجاء تدوسها أقدام أهل الفناء
ياألف حب وحنان لها ندية أجفانها بالبكاء !

***

ياابنة هذا النور عودى لها كم تسعد العودة قلب الغريب
أخشى على هذا الشروق الذى يرعى خطانا أن يكون المغيب

وللشاعر المجهول قطعة صوفية مستغرقة ، كأنه فيها أحد أولئك الصوفيين في مشهد الغيب قالها تصويرا لحالة نفسه بعد نظرة هائمة غائبة فى عينى فتاته :

أطل فى عينيك حتى أرى نفسى قد غابت بواد بعيد
كأنها تعبر فى رحلة ليس لها أمد أو حدود

***

قد بعدت عنى طيوف الحياه ثم انطوت خلفى وراء الظلال
وبان من عينيك نور يرى يكشف لى عن عالم من جمال

***

وغابت الأصوات عن مسمعى خلفى كصوت الركب إذ يبتعد
ثم انطوت نفسى بأفراحها وشوقها خلف شعاب الأبد

حتى إذا ما انتبهت مقلتى كما صحا من حلمه الحالم
أحسست كونا آخر اخافيا يبدو لعينى وجهه الباسم

***

وزادت الزرقة بين السماء وزادت الفرحة بين الضياء
كأن نورا ثم فى خاطرى يجاوب النور الذى فى السماء

وإذا كنت قد اقتطفت معكم إلى هنا زهرات من روضة الحب الموفقة، فأرجو أن تعدوا نفوسكم معى لتحمل وخزات الأشواك الدامية، فى سلسلة من القصائد لشاعر واحد، تمثل نفسه فى مراحل مختلفة:

أولى هذه القصائد: « يوم الظنون »:

يوم الظنون صدعت فيك تجلدى ولقيت فيك الضيم مغلول اليد
وبكيت كالطفل الذليل أنا الذى مالان فى صعب الحوادث مقودى
وغصصت بالماء الذى أعددته للرى فى قفر الحياة المجهد
لاقيت أهوال الشدائد كلها حتى طغت فلقيت مالم أعهد
نار الجحيم: إلى غير ذميمة وخذى إليك مصارعى فى مرقدى
حيران أنظر فى السماء وفى الثرى وأذوق طعم الموت غير مصرد
أروى وأظمأ: عذب ما أنا شارب فى حالتى نقيع سم الأسود
وأجيل فى الليل البهيم خواطرى لاشارق فيه ولا من مسعد
وتعيد لى الذكرات سالف صبوتى شوهاء كاشرة كما لم أشهد
مسخت شمائلها وبدل سمتها وبدت بوسم فى السعير مخلد
ياصبوة الأمس التى سعدت بها روحى. وليت شقيها لم يسعد
وعرفت منها وجه أصبح ناضر ورشفت منها ثغر ألعس أغيد
سوحت بل جوزيت كيف وعيت لى زرق الأسنة فى الإهاب الأملد
أمسيت حربى فى الظلام وطالما حليت لى وجه الظلام المربد

وقد جئت الليلة أعرض على حضراتكم فكرتى فى تيسير الكتابة وضبطها بعد هذه التقدمة، لعلنا نصل بها وبغيرها إلى مانروم، وبالله التوفيق والهداية.

وطريقتى مبنية على خمس قواعد، وهى:

(١) الاستغناء عن الفتحة، وتكون علامتها إهمال الحرف المفتوح: مثل وعدك فصدقك وحضر ونصرك وخرج معك.

(٢) الاستغناء عن ألف المد بوضع هذه العلامة (') فوق الحرف الممدود بها مثل: مثل: يحفظ يعقل م لن غير عملن.

(٣) الاستغناء عن علامة الهمز « ء » هذه بتصويرها ألفا دائما مثل: ا اذ جات جاتن بيطا وقادة يقاد.

(٤) الاستغناء عن واو المد ويائه، بوضع هذه العلامة « - » فوق الحرف الممدود بالضم، وتحت الحرف الممدود بالكسر: مثل محبك احبب يبسف ياخ.

(٥) كتابة ماننطق به وحذف مالا ننطق به بعد ذلك مثل: —

فصدق نجة وفلكذب لهلك ولحق اول بلتبع فلزم صدق ولحق دام، فله سبحنه وتعل ل يحب لكذبن، ويرض عن صدقن.

مزايا هذه الطريقة

(١) الاقتصاد فى الكتابة (٢) النطق الصحيح (٣) الخلاص من متاعب الإملاء (٤) عدم الاحتياج إلى سبك حروف أوعلامات جديدة (٥) السهولة التامة فى معرفة وتعلم القراءة والكتابة مع الضبط.

ورجعت أهرب من لقاك وطالما ... ألفيت عندك فى الشدائد مقصدى
ما كان من شىء يزيد تنعمى ... إلا يزيد اليوم فيك تلددى
أواه من أمسى ومن يومى معا ... والويل من طول التردد فى غدى
أهب الخلود كرامة لمبشرى ... أن ليس يومى فى العذاب بسرمد
وأبيع حظى فى الحياة بساعة ... أنسى بها عمرى كأن لم أولد
وأسوم مرعى العيش غير مزود ... وأرود روض الحب غير مقيد

حتى إذا انتهى من الظن القاتل الأليم ، وجد اليقين داميا كالظنون :

مضى الشك مذموما وما كان ماضيا ... فليتك تمسى عن يقينك راضيا
وجل عن التصديق أنك هاجر ... وأنك مهجور وأن لا تلاقيا
فلله ماذا حل بالقلب فارعوى ... وآمنت بالحق الذى كنت آبيا
وأمسيت تدرى أن للود غاية ... وأن زمانا سوف يلقاك خاليا
وعشت ترى حبا كحبك ينقضى ... وما خلته إلا يد الدهر باقيا
مضى غير مردود كأنك لم تكن ... بعينيك ترعاه وبالنفس فاديا

«»

ألا لا تذكرنى بصدق وددته ... على جنبات الغيب مازال خافيا
ألا لا تذكرنى يقينا شريته ... بأنفس مايغلو به الشك شاريا
لكذبت صدق الهجر لو أن موطنا ... من الشك يوما لم أثب منه خاويا
سل الصبح كم ماريته كلما بدا ... ولم يبد فيه ذلك الوجه خاليا
سل الليل كم جافيته كلما سجا ... ولم أرتقب فيه الحبيب الموافيا
سل النيل كم أنكرته كلما جرى ... ولم ألق فيه ذلك الحسن جاريا
سل الدار كم ناشدتها القرب راجيا ... وأرهفت فى ألحانها السمع صاغيا
ويخدعنى ما اعتدت من طول قربه ... فأحسبه عندى وقد بات ثانيا
يريب فى صمتى ليالى لا يرى ... على خده منه نجيا مناغيا

وتطلبه كفى ليالى لاترى على خصره منه نطاقا مدانيا
وتطلبه منى جفونى تعودت على البعد أن تلقاه فى الحى آتيا
ويسألنيه كل يوم وليلة فؤاد يراه حيثما كان رائيا
وكيف بنسيان الأليف الذى به تذكره الدنيا إذا راح ناسيا
تفقده فى كل شىء فما انثنى فآمن بعد اليأس بالبين عانيا
سل الروض مطلولا سل القفر صاديا سل النجم لماعا سل البدر ساريا
فإنك تدرى كيف صدقت باسما إذا بت تدرى كيف كذبت باكيا
وإنك لاتخشى ردى الموت بعض ما خشيت ردى الحق الذى لاح هاديا

وهكذا صار إلى اليقين بعد ماطرق كل باب من أبواب الشك فعاد منه خاويا، ولم يصر إليه مع هذا فى سهولة، ويسر، ولكنه أنكر الدنيا ومعالمها وأنكرته نفسه وجوارحه. وإذا هو بعد ذلك يتلفت فيرى التبدل العجيب بين أمسه ويومه. بين حبه وسلوانه. بين عالمين من عوالمه كأنه فى كل منهما شخص غير ذاك مختلف جدا. فيسجل هذا التبدل كله فى قصيدة « السلوة ».

أذن السلو فماله لم يحمد ودنا الرجاء وما الرجاء بمسعدى
أعدوتُ أم شارفت غاية مقصدى ؟
برد الغليل اليوم وانطفأ الجوى وسلا الفؤاد فلا لقاء ولا نوى
وتبدد الشملان أى تبدد
قذفت بنا الأيام فى غمراتها ورمت بنا فى التيه من فلواتها
فردين لم يتلاقيا فى موعد
لا أنت أكرم من أحب ولا أنا سلواك دون الناس فى هذى الدنى
تفدين حبى بالحياة وأفتدى
ما كنت أحسب أن أبيت عشية أبد الزمان ولا أراك نجية
تحت الظلام ولا أضيق بمرقدى

يأتى الأصيل ولا تراقب وعده ويلى الظلام ولا تحاذر سهده
وإذا انقضى يوم فليس إلى غد
وإذا رأيتك فى الطريق فعابر يجتاز عابرة ، وطرف ناظر
يرنو لناظرة تروح وتغتدى
عجب لغابرنا وحاضر أمرنا أكذا تمر بنا معالم عمرنا
وتزول ، حتى لا دليل لمهتد ؟
هذه الشفاه فهل على بسماتها أثر يشف اليوم عن قبلاتها
فى ذلك الماضى الذى لم يبعد؟
هذى العيون فأين من نظراتها لمسات رحمتها ووحى هناتها
لم يبق من خبر ولا من مشهد
ذكرى تردد فى الحياة سقيمة وتعيش فى كنف الهوان يتيمة
وتمر ذاهبة كأن لم توجد

من شاء أن يعلم معنى الصدق فى بواعث القول ، وفى التعبير عن هذه البواعث ، ففى هذه الأمثلة مايوضح هذا المعنى ويجلوه . ومن شاء أن يعرف كيف يكون الغزل أنماطا فى شعر المدرسة الحديثة وكيف يكون الحب شيئ غير الجوع والظمأ ، ومعنى أكبر من الإحساس الساذج بالمرأة ، ففى الأمثلة المتقدمة مايكفى للمعرفة .

فمن كان إلى هذه اللحظة لم يشعر بهذا ولا بذاك ، فالمدرسة الحديثة غير مسئولة عن ضيق الإحساس وبلادة الشعور ؛ وليس عندها ولا من برنامجها ذلك الغزل الرخيص المطروق . ومن اعتاد ألا يطرب لغير الطبل البلدى والمزمار ، فلا عليه ألا يطرب للموسيقى التصويرية وسيمفونيات بتهوفن وفى غزل العباس بن الأحنف وعمر ابن أبى ربيعة والبهازهير والشاب الظريف وأمثالهم مايغنى عشاق الطبل والمزمار .

بق أننا نسمع كثيرا نغمة متكررة اسمها « الأسلوب » . ولعل منشأ هذه النغمة أن المدرسة الحديثة نشأت شديدة الزراية بالألاعيب اللفظية التى ليس وراءها إحساس صادق ولا شعور ممتاز ، ففهم جماعة من الناس أنها غير معنية بجمال التعبير ، وذلك خطأ لا تبرره مبادىء هذه المدرسة ولا يبرره إنتاجها فقد سمعتم منى الليلة عشرين مقطوعة ، وهى لا تقل فى مجموعها من ناحية الأسلوب عن أروع الأساليب العربية وأرقها وأمتنها ، وفيها ما يرتفع فوق كل ذروة بلغتها أساليب التعبير العربية ، ومثلها كثير فى دواوين الشعراء المجددين ، وذلك فضلا على أنها تضطلع بتصوير أحاسيس ومعان لم تكن تضطلع بها الأساليب القديمة وهذا عبء جديد من الإنصاف تقديره . ولا يجوز أن يرتكن الناقدون الأسلوبيون إلى مقطوعات وأبيات لا يجدون فيها الرنين الظاهر والموسيقى المحسوسة ، فربما استعاضت عن هذا بفكرة مبتكرة لا يناسبها إلا أسلوب دقيق . وعلى أية حال فهى قلة لا تعاب إلا كما عيب مثلها على شعراء مثل المتنبي وأبى تمام والمعرى ، فلم تقدح فى مستواهم الرفيع .

إن المدرسة الحديثة تصغر من قيمة الأساليب لأنها أداة أولية للفنان لا تستحق الالتفات مفروض استكمالها ومعرفتها كمعرفة المصور بطريقة خلط الألوان والأصباغ . فالتجويد فيها وحده لا يحسب شيئا ولا يستحق التفاتا خاصا . وكما أنك لا تمدح الرجل القوى البنية بقولك : إنه يمشى بخطا مستقيمة . كذلك لا تمدح الشاعر بقولك : إنه يجيد التعبير . فالتعبير فى الشعر مرحلة بدائية آلية كالمشى عند الرجل القوى البنية أو هو كما قلت كران المصور على خلط الأصباغ والألوان لا يكفي ليكون فنانا ، ولا ينبغي ذكره إلا على هامش مزاياه ،

وقد أرادت المدرسة الحديثة أن تقول هذا للمعتزين بالأساليب . فأصغرت من شأن الأسلوب، الذى لم يخلق فنانا إلا أن تكون وراءه ذخيرة نفسية وطبيعة قوية.

فإذا شاء أحد أن يحتسب على المدرسة الحديثة تلك الأساليب الأخرى المرتعشة المتراقصة الصور والأخيلة ، المتداخلة الاستعارات والكنايات ، فالمدرسة الحديثة لا تعرف شيئا عن ذلك العبث ، وإنما هى فتنة بالبريق والجلجلة والرقوش ، وهى ليست شعرا أصلا — بله أنها من الشعر الجديد — فدونهم والإنكار على تلك الفتنة فإنا معهم لمنكرون .

حلوان

سيد قطب